

لا يَفْلُ الحَدِيدَ إِلَّا الحَدِيدُ

عزّام محمد زقزوق*

قبل أكثر من ثلاثة عقود، وبالتحديد يوم الثلاثاء بُعِيد يوم عاشوراء عام 1412 هجري (الموافق: 1991/07/23م)، إبان دراساتي الجامعية في مدينة بونا-الهند، دُعينا وفداً مُمَثِّلاً لِاتِّحَادِ الطَّلَبَةِ المُسْلِمِينَ (MSU) من قِبَلِ زُمَلَاءٍ لَنَا في اتِّحَادِ الطَّلَابِ الإِيرَانِيِّينَ (ISU)، دُعينا لمُقابَلَةِ السَّفِيرِ الإِيرَانِيِّ في مَقَرِّ اتِّحَادِهِمْ في بونا. وقد اخْتَرْتُ من قِبَلِ أَعْضَاءِ وَفَدِنَا لِجِوَارِهِ وَمُنَاقَشَتِهِ بِحُضُورِهِمْ؛ حيثَ عَرَضَ بِاسْمِ سَفَارَةِ دَوْلَتِهِ في الهِنْدِ كَافَّةً أَشْكَالَ التَّعَاوُنِ المَفْتُوحِ والمُساعدَةِ؛ بِوصْفِنَا فِلَسْطِينِيِّينَ، وَأَنْصارِ لِحَرَكَةِ المَقَاوِمَةِ الإِسْلامِيَّةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ. وقد رَكَّزَ سَعادَتُهُ في جِوَارِهِ مَعَنَا على مَوْضُوعِ الوَحْدَةِ الإِسْلامِيَّةِ وَضُرُورَتِهَا، ودَوْرِ الجُمهُورِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ في تَعزِيزِهَا... إلخ. ومِمَّا كانَ لَافِتًا مُرافِقَتُهُ مُعَمَّمٌ رَافِضِيٌّ إِيرَانِيٌّ يَلْبَسُ السَّوادَ، يَتَحَدَّثُ العَرَبِيَّةَ بِلسانٍ أَعْجَبِيٍّ، وباللَّهْجَةِ اللُّبْنَانِيَّةِ.

وقَد بَادَرْتُ السَّفِيرَ وَمُرافِقَهُ وَأَصْحابَ الدَّعْوَةِ بالشُّكْرِ؛ بِاسْمِ اتِّحَادِنَا، على الدَّعْوَةِ والعَرَضِ الكَرِيمِ، وَسألْتُهُ مُستَفْهِمًا: الوَحْدَةُ الإِسْلامِيَّةُ الَّتِي تَفَضَّلْتَ بِالتَّرْكِيزِ عَلَيْهَا بِناءً لا بُدَّ لَهُ مِنْ أَساسٍ، فَمَا هُوَ أَساسُهُ بِفَهْمِكُمْ وَتَصَوُّرِكُمْ؟ أَسَهَبَ سَعادَتُهُ في شَرَحِ العُمُومِيَّاتِ الإِسْلامِيَّةِ، ومُحارَبَةِ الصُّهْيُونِيَّةِ، والعَدَاوَةِ لِأَمْرِيكا؛ بِوصْفِها الشَّيْطانَ الأَكْبَر... إلخ. إلا أَنِّي كَرَّرْتُ سُؤالي وَاسْتَفْهامي بِمزيدٍ مِنْ طَلَبِ البَيانِ المُحَدَّدِ والمُحَدَّدِ لِمَاهِيَّةِ هَذَا الأَساسِ. هُنَا تَدَخَّلَ المِرافِقُ المُعَمَّمُ بِلُغَتِهِ العَرَبِيَّةِ المُكْسَّرَةِ بِمزيدٍ مِنَ الواضِحَاتِ الفَضْفَاضَةِ! لَكِنْ بِمَشاعِرِ امْتِعاظٍ وَاسْتِياءٍ عَجَزَتْ لُغَةُ الدِّبْلُوماسِيَّةِ عَنْ إِخْفائِها... فَبَادَرْتُ بِاسْمِي وَمَنْ اخْتارُونِي بِالقَوْلِ: إِنَّ مَفْهُومَنَا وَتَصَوُّرَنَا لِلوَحْدَةِ الإِسْلامِيَّةِ -نَحْنُ الفِلَسْطِينِيِّينَ العَرَبِ المُسْلِمِينَ- أَنها بَلا أَدنى شَكِّ بِناءً ضَرُورِيٌّ لِلأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ، لَكِنْ على أَساسٍ وَمِعايَرٍ مِنْ كِتابِ اللهِ ﷻ وَثابِتِ سُنَّةِ رَسولِهِ ﷺ... وَليسَ على أَساسٍ وَمِعايَرٍ مِنْ مَذْهَبٍ أَوْ طائِفَةٍ بَعِيْنا. فَإِذا كُنَّا مُتَّفِقِينَ على هَذَا الأَساسِ والمِعايَرِ فَمَرَحَبًا بِكُمْ وَبِعَرَضِكُمْ الكَرِيمِ، أَمَّا إِنْ اخْتَلَفْنَا فَشُكْرًا لَكُمْ على دَعْوَتِكُمْ الكَرِيمَةِ... فَمَا كانَ مِنْ سَفارَةِ الجُمهُورِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ الإِيرَانِيَّةِ بُعِيدَ هَذَا اللِّقاءِ إِلا أَنْ قَطَعْتَ الاتِّصالَ بِنَا والتَّواصُلَ مَعَنَا بِالمُطَلَقِ! وَفي الهِنْدِ قاطِبَةً!!

شاهِدُ المَوْقِفِ أَعْلاهُ وشَهادَتِي حَولَهُ تَبيانٌ حَقِيقَةٌ أَنَّ "لا يَفْلُ الحَدِيدَ إِلَّا الحَدِيدُ" وَلا يَفْلُ (أَي) يَتَلَمُّ وَيَكسِرُ حَدًّا) العَقِيدَةَ الباطِلَةَ إِلا عَقِيدَةُ حَقَّةٌ مَبْنِيَّةٌ على أَساسٍ مِنْ نَقْلِ صَحِيحٍ، وَعَقْلٍ صَرِيحٍ، وَفِطْرَةِ سَلِيمَةٍ. وَأني مُنذُ حَوائِيِ الثُّلُثِ قَرْنٍ مِنْ حِياتِي وَأنا أَرِصُدُ حَرَكَ وَتَدَسُّسَ هَؤُلاءِ الضَّالِّينَ فِكْرًا... المُنحَرِفِينَ سُلُوكًا... في جَسَدِ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ضَعِيفِ المِناعَةِ العَقَدِيَّةِ، وَأتَأَلَّمُ لِضَعْفِ

علمائنا الأفاضل (وأبرزهم أ. د. يوسف القرضاوي، وبرنامج التقاربي معهم)، ورجحة مفكرينا، ولجلجة دعائنا الإسلاميين في التعاطي مع ظاهرة الرّفص (ولا أقول التّشيع!) العلميّة والعملية، ونشاط القائمين عليها، حتى باتت هذه الظاهرة واقعا متوغلا... ومتغولا...

الأمة الإسلاميّة احتضنت هؤلاء الرّافضة الضالين قرونا، لا بل ألفيات، من السنين أفرادا وبؤرا، ولم تضق بهم ذرعا، وبضلالهم سببا، وأنصفهم من نفسها، ومن ثرائها، فأبوا إلا التّوغل في جسدها... والتّغول عليها...

أحزن وأتالم عندما أرى حراك هؤلاء الضالين المنحرفين في واقع بيت المقدس وأكنافه... وأعتصر المأ عندما أدرك أن إستراتيجيّة دولة هؤلاء الضالين المركزيّة (إيران) قد أفادت واستغلت خلال عقود من تعاونها وتسيقها مع حركة المقاومة الإسلاميّة (حماس) وما زالت، أكثر ممّا أفادت واستغلت (حماس) في إستراتيجيتها معهم (هذا إن أحسنّا الظنّ بوجود إستراتيجيّة عند إخواننا أصلا!)... حتى استمرأت (حماس) السُّخرة والاستغلال، وكُبلت بالمنة والأفضال؛ بحجة أن المحيط العربيّ قد تخلّى عنها!!! وكان محور القضية بات متعلقا ومعلقا فقط بحركة (حماس) وإستراتيجيتها! وذويها! وليس متعلق ومعلق بمحور توحيد وإيمان وشريعة الأمة الإسلاميّة قاطبة!!

هي دعوة لجميع الكيانات الحرّة، فضلا عما اصطُح على تسميته بالإسلامي منها، أن اركبوا سفينة الأمة الإسلاميّة؛ فلا عاصم اليوم من هيجان وموجان الواقع إلا بالاستمسك بالعمود الوثقى؛ من خلال الكفر بالطاغوت من جانب، والإيمان بمن يرضى منه -ﷺ- ما لا يرجون، من الجانب الآخر...

كنتم، يا سادة، تُشكّلون رافعة ملهمة للأمة الإسلاميّة في بداياتكم، فأصبحتم مرفوعين ملحقين... كنتم أحرارا في اتخاذ قراراتكم، فأصبحتم مسخرين... كنتم ظاهرين بارزين في مواقفكم وقاماتكم فبئتم مدافعين...

ألا رجل، من أصحاب الأيدي البيضاء، يوصل شهادتي ومقالي هذا للأخ أ. / خالد مشعل "أبو الوليد" قبيل مغادرته المكتب السياسيّ لحركة (حماس)، بوصفه أحد المؤسسين المُستتمين رئاسة مكتبها السياسيّ عدّة دورات متعاقبة؟ أم سننتظر تدينه فحوى شهادتنا ومقالتنا هذه مذكراته الشخصية؛ ضمن اعترافه المستقبلية ودروسه المُستفادة، قبل وفاته!؟

قد يقول قائل ويتساءل مُتسائل لِم لِم تُناصح وتوصل شهادتك وبياناتك لحركة (حماس) مباشرة دون جهر القول وعلانية الفعل؟! فلا يجبُ الله ﷻ الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم!

أقول، والله ﷻ شهيدٌ على قولي، أنَّ كلَّ مُحاولاتي الاتصال والتَّواصل مع حركة (حماس) عبرَ سنواتٍ وعُقودٍ قد باءت بالإحباط والإخفاق... وأخرها مُحاولَةٌ مُضنيَّةٌ من خلال أحدِ المؤسَّسين المُخطَّطين الإستراتيجيَّين من رجالات الصَّفِّ الأوَّل؛ بوضعي رَسْمِيًّا "خُلَاصَةٌ فِكْرَةٌ" (Abstract) حول مُقترحٍ إستراتيجيٍّ مُهمٍّ، قدَّمته لوضع وبناء ما اصطَلحتُ على تسميته من طرْفِي بِاسْمِ: "النَّظَرِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ المُعْيَارِيَّةُ" (نِسَام). وهذا بُغْيَةٌ غَرَبْتَهُ، لا بل تَنخِيلُهُ، مع المعنيَّين من رجالات السِّيَاسَةِ (Politicians) ومُتَخَصِّصِيهَا/عُلَمَائِهَا (Political Scientists)، فما كان منهم إلا الإهمالَ وَعَدَمَ الرَّدِّ إلى يَوْمِنَا هذا!! وسأضعُ هذا المقترح الإستراتيجيَّ -بإذن الله- بين أيدي أبنائِ شعبنا والأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ ونُخبِها قَريبًا؛ إن لم تتَحَمَّلْ حركةُ (حماس) مسؤوليَّتها، بالرَّدِّ على الأقلِّ!! وسأُمضي في مَوقفي هذا قُدْمًا ما حييتُ؛ إلى أن يَؤُوبَ المُبطلُ إلى الحَقِّ، ويفيء المَخطئُ إلى الصَّوابِ... فإبراءُ الإنسانِ ذِمَّتَهُ، ممَّا قد يُحسَبُ أو يَجري عليه، يُعدُّ من أبسطِ حُقُوقِهِ.

الخُلَاصَةُ: إنَّ توحيدَ وإيمانَ وشريعةَ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ أَهمُّ وأكثرُ حُرْمَةً من عَتَبَاتِ المساجِدِ التي لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إليها؛ ومنها المسجدُ الأقصى. وعليه؛ فإنَّ تَوَعُّلَ وتَعَوُّلَ هؤلاءِ الرافِضَةِ الضالِّينَ المُنحرفين في واقِعِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ أخطرُ وأضرُّ عليها من هَدْمِ أركانِ بناءِ المسجدِ الأقصى؛ أو حتى بناءِ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ.

أهيبُ بكلِّ المُهتَمِّينَ والمهمومينَ مُشارَكَةَ شهادتي ومَقالي هذا على أوسعِ نطاقٍ، وبمختلِفِ وسائلِ الاتصالِ المُعدَّةِ للوصولِ إلى أكبرِ عددٍ مُمكنٍ من أبنائِ شعبنا الفِلَسْطِينِيِّ وأُمَّتِنَا الإِسْلَامِيَّةِ؛ فالخَطْبُ جَلَلٌ، وأُمَّتُنَا تعيشُ حالةَ مَخاضٍ غيرِ مسبوقةٍ... والحالُ يَقْتَضِي مِنَّا وَيَسْتَلْزِمُ مو اقفَ (وليس مَوقِفًا واحدًا) بكلِّ الأساليبِ المُسؤولةِ، والوسائلِ المُتاحةِ.

*مستشار ومُدَرِّب وباحث إدارة مشروعات